بالتالي يحاسَبُ وفق الجنس الأدبي الذي كُتِبَ فيه لا وفق تاريخ كاتبه وهويته.

وعلى مثل هذه الأسئلة المحورية ينطوي الكتاب، ومنها أسئلة حول قصيدة النثر، وأدب الحرب، والفصحى والعامية، يدلي فيها الكاتب بإجاباته، التي قد نتفق معها في أحيان كثيرة ونختلف معها أحياناً أخرى... إلا أننا لا نمتلك إلا أن نحترمها لأنها نتاجُ تجربة أدبية وإنسانية مبدعة عنوانُها: عبد الرحمن مجيد الربيعي.

بغداد

«باب الشمس» بين التسجيل ومقتضيات الفن

محمود سعيد

إلياس خوري في روايته **باب الشمس*** يسرد، في لقطات فنيةٍ وبتفاصيل غايةٍ في الثراء، تاريخَ فلسطين.

بعد كل ذلك الكفاح ماذا يبقى للروائي أن يسجّله غير ماضٍ مؤلم، وحاضرٍ ومظلم، وآتٍ مبهم؟ ولماذا حشر إلياس خوري نفسه في تلك الزاويا الحرجة؟ ألم يكن له من متنفس؟ بلى. إنّ أفق الرواية واسع لا حد له، كالحياة. لكنّ الإحساس يجتذب القلم الصادق والنفس الصادقة والبلاغ الصادق، ولهذا يقع المبدعُ أحياناً في شباك التقريرية، وبخاصة إذا كان صحافياً. أما أن يجد مَنْ يعذره أو لا يعذره من النقاد أو القراء، فتلك مسألة أخرى.

يتفرد تاريخُ فلسطين عن تاريخ أيّ بلد أو قطر عربي آخر. فهو حافل باحتدام نضالٍ لم يهدأ منذ عقود طويلة، نضال شامل لا يمكن أن يحيط به قلمٌ. إنه تاريخ مربك، ملتهب، ملتبس؛ وعلى من يتصدى أن يدرك أنه أمام قضية شائكة يستحيل تصويرها بأمانة واقعية، فكيف بها فنية؟

استعان الكاتب بشهادة «عشرات النساء والرجال في مخيمات برج البراجنة وشاتيلا ومار الياس وعين الحلوة» ومساعدة عشرات آخرين، واستضاء بـ «نصوص» أعداد أخرى من البشر كتّاباً وغير كتّاب، كما يقول. إذاً فالأمر توثيقي فني؛ أما ماذا يطغى عليه بعد إنجازه، فذلك ما لم يفكر به الكاتب.

الشخصيات: ثمة شخصيات أربع رئيسة: الرواي (طبيب مزيف)، ومناضل أسطوري مريض، وأم حسن النبيلة الحنون الطيبة أم الكل (رمز لفلسطين)، وشمس (العاهرة والقديسة، الحلم الجميل الطاهر والواقع الملوث الملتبس والنهاية الفاجعة، وهي رمز ثانٍ لفلسطين). ومن خلال هذه الشخصيات يروي خوري قصة فلسطين. ولكنّ هذه الشخصيات تتشابك خيوطها بخيوط عشرات المئات من الأبطال الثانويين، ولهذا تستعصي على الإيجاز. فهذا المناضل الرئيس الأسطوري ساهم بارتكاب المذبحة التي أودت بشمس أي بفلسطين، وشمس تخون وتعطي نفسها إلى غيرٍ واحد، والراوي يخون مثله الأعلى، وأم حسن بالرغم من عملقتها تتصرف بحمق (حادثة إبريق القهوة). لكنّ خوري يلتزم في روايته التزاماً شديداً بالوقائع المتلاحقة المثيرة، ولولا إغفالُهُ ذكر اجتياح إسرائيل للبنان وبيروت (اللهم... إلا من إشارات سطحية) لكانت الرواية هي الانعكاس الفني الكامل لتاريخ فلسطين كله خلال نحو قرن كامل.

أتعاطف مع الكتّاب الذين يتصدون لمثل هذه المهمة المحيرة، لأني ككاتب مررتُ بمثل تلك التجربة. فبعد خروجي من السجن دفعني شعوري بالظلم إلى تسجيل ما رأيتُ، لكنّ الذي استوقفني أنني كنت واحداً من مئات آلاف المظلومين الأبرياء الذين لو عاشوا تحت ظلّ أيّ قانون آخر ـ حتى ولو كان أقدم قانون في العالم (أوركاجينا ـ حمورابي) ـ لما بقوا لحظةً واحدة في السجن. رأيتهم يُحتجزون، يُسجنون، يُشنقون، يُرمَوْن بالرصاص، يموتون تحت التعذيب، يُغتَصَبون، يُدْفَنون أحياء، يحيق الهلاكُ بأطفالهم وذويهم دون أي تهمة دستورية. أأعبِّر عن معاناتي فقط أم عن معاناة الآخرين أيضاً؟ ظللتُ أسأل نفسي ماذا أفعل، ثم وجدتُ الجواب في محاولتي التي ذكّرني بها خوري، وذلك بسرد عشرات الحوادث على لسان بعض الشخصيات الرئيسة، فكتبتُ **أنا الذي رأى**. وفعل خوري الشيء نفسه، لكنّ عمله أكبر من عملي الأدبي بأربعة أضعاف، فيا له من جهد نبيل!

ابتدأ خوري الرواية بإشعاعة مضيئة وإن كانت ملغزة عن الجنيد البغدادي الصوفي، وأنهاها بفنطازيا لا تقل إلغازاً. وكأني به يقول إننا وصلنا إلى نهايةٍ هي البداية، أو بدأنا بخطوة كانت هي النهاية ولكنها مشبعة بيأس مرير خَلَتْ منه المقدمةُ التي كان فيها نوع من أمل طوباوي على طريقة الصوفية.

الطبيب المزيف يعرف كل شيء عن المريض، والمريض لا يرتاح إلا لهذا الطبيب الذي ربّاه، والمرأة هي أم الجميع من

* - إلياس خوري: **باب الشمس** (بيروت: دار الآداب، ط ٢، ١٩٩٨).

دون منازع، والحبيبة شمس هي ربيع الحياة الدائم التي تعطي نفسها لكل مشتهٍ فتمنحه خلوداً دائماً حياً يعيش في ذكرياته ولا ينتهي إلا بنهايته.. لكن هناك بالإضافة إلى كل هذا بضع مئات من القصص الصغيرة الموحية اللذيذة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: قصة جامعة العظام، ونهيلة أم الطفل المحتضر، وتقاليد الزواج البالية، وقصة أبو معروف وأبو محمود، والفتاة التي لا تعرف معنى الزواج حتى علّمتها حماتُها الأمورَ خطوةً خطوة، وقصة الكويكات وسحب الطفل من بين يدي الجنود اليهود، وقصة اليهودية اللبنانية، وتعاطف الكاتب المشروع مع أحاسيس المرأة اليهودية ورغبتها في رؤية وطنها العراق، وقصة نعمان الناطور، وقصة كايد وزوجته الكردية الجاسوسة والضالعة مع كاظم المرافق الخائن، وقصة الدكتور أمجد وعدنان أبو عودة، وقصة علي أبو رابح مع أبي جورج السوري ويونس الأسدي القادم من جنوب العراق، وقرية شعب، وكمّ هائل يصعب إحصاء تفصيلاته.

الخلاصة هي أنّ ثلاثةً من أبطال الرواية الرئيسين الأربعة يموتون، وهم: مريض كان من قبل مناضلاً أسطورياً قوياً عميق التفكير، وشمس المثيرة، وأم الكل أم حسن. كلهم يموتون، يتركون الأمور كما هي: مخيمات، لاجئون، بؤس، يتركون كل شيء بلا أمل... بل بحيرة وارتباك مجنون (قدمان تغرقان بالوحول ويدان هائمتان تمسكان بحبال المطر). أهو الباب الموصَدُ بطلاسم القهر والمستحيلات، أم قصورٌ في تلمّس أهداب حبال الإنقاذ؟ أهو باب الفناء الذي فتحته اتفاقياتُ أوسلو، أم الإحباطُ الذي خلّفته حربُ الخليج؟ أم الأمور هذه جميعها؟

الرمز الذي خلقه خوري ليرمز به إلى فلسطين كان امرأةً هي شمس. ومات المناضلُ الأسطوري بعدما ماتت شمس، لكنها تشخصتْ للروائي امرأةً أخرى متّعته كما لم تمتعه امرأةٌ من قبل أو من بعد، وطلبتْ منه ألا يفارقها، فلم يمتثل، وحين غاب عنها لحظاتٍ غابت عنه إلى الأبد وتركته مجنوناً هائماً في الطرقات. رمز فلسطين شمس تظهر لكل فلسطيني على شكل امرأة يتركها فتتركه، لتعطي نفسها لامرئ آخر. هذه هي قصة فلسطين بشكل مختصر: هي الجنة التي يتركها أهلها دون أن يقاتلوا قتالاً حقيقياً؛ يحملون السلاح، يتدربون، يعانون البرد والحر والعطش والمطر والجوع والخوف، لكنهم حين تحين الساعة يَجْبنون، يبلّلون سراويلهم، لا بل يتركون أولادهم لينجوا بأنفسهم!

الأسماء: للأسماء دلالاتٌ مهمة عند خوري، ومن قبل رأينا دلالتين ملغزتين هما «كاظم» الخائن؛ وهو اسم نادر عند الفلسطينيين، لكنّ له صدى في مكان آخر، فلماذا اختاره، أمصادفة أم لحساب ما؟ و«الكردية» الجاسوسة الخائنة، والأكراد قلة في فلسطين وجوداً ودوراً. وينطبق عليهما وحولهما السؤالُ نفسه: لماذا؟ وليس هذان الاسمان وحدهما محيريْنِ ملغزينْ عند خوري، بل في جعبته الكثير الذي يحتاج إلى صفحات أُخرى لسرده، لكني سأكتفي بالقليل الذي يثير أسئلة أهمّ:

المناضل الأسطوري المريض الفاشل أصله من العراق، واسمه يونس، وهو من نينوى بالذات؛ ولهذا الأمر دلالته الكبرى لأنّ مَنْ دمر دولةَ اليهود في الماضي هم ثلاثةُ ملوكٍ عراقيين: ملك بابلي واثنان آثوريان (الصحيح آثوري لا آشوري). وقبل أن تقوم حربُ الخليج الثانية طافتْ في الخيال رؤًى أحيتْ بعضَ الآمال وسرعانَ ما خابت. فهل عنى إلياس خوري بموته موتَ كل أمل يأتي من آثور الحديثة؟

ولماذا جاءت المرأة الحلم التي أوصلت الراوي إلى متعته الفردوسية تسأل عن إيليا الرومي؟ أمَا وقد عَلِمنا أنّها تمثل فلسطين، فلِمَ إيليا الرومي إذن؟ أيعني هذا أنها كانت في الماضي للروم (الأوروبيين) فلِمَ لا تبقى إذاً بيد الإسرائيليين، والإسرائيليون حلفاء الروم اليوم؟

اسم آخر: قاسم أحمد سعيد، هرب وزوجَتَه، وفي خارج المدينة اكتشفتْ زوجتُه أنها تحمل مخدةً بدل ابنها الرضيع، لكنها لا هي ولا زوجها ذهبا لانتزاع الطفل من بين يد اليهود، بل إنّ أم حسن هي التي فعلتْ ذلك. فلماذا اسمُ الأب هو قاسم بالذات، وهو اسمٌ نادر في فلسطين وذو معنًى؟ ولئن كانت لاسم أحمد سعيد تداعياتٌ لوّنتها استحقاقاتُ هزيمة ٦٧، فما بال اسم قاسم؟

أم حسن ـ فلسطين ـ القابلة الكريمة الحنون المرضة الشهمة، دفنتْ أولادها الأربعة، واحداً بعد الآخر، كلهم استشهدوا، ماتوا في دمائهم، ولم يبق لها سوى ابن اسمه ناجي، ليس في الحقيقة ابنَها؛ تركته أمهُ النازحة وهي تهرب، ثم أرجعته إلى أمه في قرية قانا اللبنانية، لكنه الآن يَعُولها فيرسل إليها ما يقيم أودها من أمريكا حيث يعمل. وهنا رمز آخر يحتاج إلى توضيح. أيعني خوري أنّ من سيلعق جراحَ الفلسطينيين ويقيم أودهم ويساعدهم مساعدةً غيرَ جذرية ـ تأمين الحد الأدنى من الحياة أو

اللقمة ـ ويمنع عنهم الدعمَ الفعّالَ لاسترجاع الحقوق هم الأمريكان أو المتأمركون؟ لماذا قفزتْ إلى خاطري صورةُ طيار أمريكي يظهر أمام عجلة قيادة طائرته، منتفخَ الأوداج، راضياً تمام الرضى عن مهمته، وكُتب تحت الصورة «الطيار الأمريكي... الفلسطيني الأصل العائد من مهمة رقم (كذا)... من قصف العراق...»؟

سلّم أولو الأمر مصيرَ فلسطين إلى اسرائيل في أوسلو واقعياً، لكني ما كنتُ أظن أنّ هذا التسليم سيظهر (وبمثل هذه السرعة) في الأدب!

التناصّ: في الرواية تناصّ. فخوري يستعيد حوادثَ رواية **عائد إلى حيفا** لغسان كنفاني، حين يرجع أبوا الطفل المتروك إلى بيتهما في حيفا بعد هزيمة حزيران، فيجدان مَنْ يرحِّب بهم، ويجدان البيت كما هو من دون تغيير. ثمة في **باب الشمس** تفصيلات شبيهة بتفصيلات كنفاني، و«أنا ناطرتك من زمان، أهلاً وسهلاً» عبارةٌ مشابهةٌ في الروايتين من حيث المعنى ولكنها عند خوري تخلو من الحدة والاحتدام المشوِّقيْن اللذيذين اللذين رأيناهما عند كنفاني. لقد أراد خوري أن يَنْهض بعثرة كنفاني، فوقع في خطإ أفدح: فليس من المعقول أن تترك أمٌّ طفلَها الرضيعَ وتهرب بجلدها باحثةً عن زوجها (كما فعل كنفاني). بل إنّ خوري غيَّر الوقائع: فجعل المرأة ترجع لترى بيتها فقط، ولكنها ترجع وفي يدها إبريقُ فخّارٍ للذكرى، ثم ظلت تندب حظها ندماً لأنها أرجعته؛ وفي هذا افتعال يشبه افتعال كنفاني!

هناك تناصّ آخر: وليد مسعود، في رواية جبرا **البحث عن وليد مسعود**، يختفي ويترك شريطاً غامضاً في مسجلة سيارته، ومن تتبُّعٍ أشبه بتتبع الرواية البوليسية نكتشف تفصيلات رواية جبرا. وفي **باب الشمس** يدفع خوري سناء إلى حمل شريط الفيديو التابع لأم حسن إلى الراوي ليقودنا في حملة بحث لاكتشاف تفصيلات الشريط.

قد يرى خوري في هذين التناصين خدمةً للرواية، وهو حر في رأيه وفي رؤيته، لكنّ للآخرين حريتهم أيضاً في فهمهم لهذا الرأي ولهذه الرؤية.

خاتمة: وأخيراً فقد سدَّتْ رواية **باب الشمس** فراغاً كبيراً في مسيرة الرواية العربية التي تتناول القضية الفلسطينية. وهي رواية كبيرة في موضوعها، وفي حوادثها، وفي تفصيلاتها، وفي شخصياتها.

بغداد (الإمارات)

تابع في العدد القادم من الآداب:

- الترجمة I

(عشرة باحثين عرب يتناولون قضايا الترجمة من الناحية النظرية، يتبعهم في العدد الذي يليه باحثون آخرون يتناولون قضايا الترجمة من الناحية العملية والتطبيقية)

- المثقف العراقي تحت الحصار

(ملف من إعداد ماجد السامرّائي ـ بغداد)

- سعدالله ونّوس في ذكراه الثانية (سيد البحراوي ومصطفى رمضاني)